أمراء للبيع...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال الشيخ تاج الدين محمد بن على الملقَّب طوُبر الليل أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة (١) :

كان شيخنا الامامُ العظيم شيخُ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد (٢) لا يخاطب السلطان إلا بقوله: (يا إنسان)، فما يخشاه ولا يتعبَّد له ولا يَنحَدُه ألقابَ الجبروت والعظمة ولا يُزينه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع غيره من العلماء . وكان هذا عجيبا ؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحدا قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان) ، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الانسانية .

ثم كان لا يعظم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء ، فاذا خاطب منهم أحداً قال له (يافقيه) . على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرقعة (٣) . ثم يخص علماء الدين بن الباجى وحده بقوله (يا إمام) ؛ اذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة ؛ فهو كالبرهان إجلاله إجلالُ الحق لأن فيه المعنى وتثبيتَ المعنى .

وقلت له يوما : ياسيدى أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ، فان علوت قلت (ياإنسان) وإن نزلت قلت ياإنسان ؛ أفلا يُسخطه هذا منك وقد تذوَّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هى ظلُ الكلمات التى يوصف اللهُ بها ، ثم جعله الملك إنسانا بذاته فى وجود ذاته حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة ، يستويان في العنصر ويتباينان فى القدر ، وأقله مهما قلَّ هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدى إيش هذا ؟ إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها ؛ فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون دينا ؛ ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلطخة فى الثوب الأبيض ليست كلطخة فى الثوب الأسود . والمنافق رجل مغطًّى فى حياته ولكن عالم الدين رجل مكشوف فى حياته لامغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معانى النور لا معانى الظلمة ؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل فاذا نافق فقد كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين فاذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة فى الناس دهراً بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ويقومون بحجتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور ، تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها فهى أداة لإظهاره وإظهار جماله معا .

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير

(١) توفى سنة ٧١٧ هـ (٢) كانت وفاته سنة ٧٠٢ (٣) توفى سنة ٧١٠

قالت : « أبدا . . أبدا . . قوى جداً . . كسيد نصير »

قلت : « عجيب هذا . . »

فقالت : « كتبك كلها عندنا تراها فى كل غرفة . . »

فسألتها : « أهى حسنة التجليد ؟ »

قالت : « لا . . كما اشتريناها . . كل يناتى وأحفادى يقرأونها ويحملونها معهم حيثما يكونون »

قلت : « شيء جميل »

فقالت : « أوه . . لشد ما يفرحون الليلة حين أقول لهم إنى كنت جالسة إلى جانب تيمور بك »

ابراهيم عبد القادر المازنى

حاشية — أرجو من الأستاذ تيمور بك أن يحول الى الشاب الذى يغلط به الناس كما حولت إليه حقه المازنى

وعالم السوء يفكر فى كتب الشريعة وحدها ، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفى ، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة فى صاحب الشريعة فهو معه فى كل حالة يسأله : ـ ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الدينى لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجىء كل يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه : هم يعطونى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدى اذا كان صحيحا فى أحد وجهيه دون الآخر أو فى بعضه دون بعضه فهو زائف كله . وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع أمثال هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم . . . فينزلونهم بذلك منزلة البهائم تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها . والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله . . .

فاذا رأيت لعلماء السوء وقارا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو محاسنة فقل انها النفاق ، أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها

* * *

قال الامام وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام [1] . فلقد كان الآمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أو عاش إذ هو فى الدم كالقلب لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره . ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة قوة لا تغلب . وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته أرواح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف ، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك . فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لانتزع منى المملكة

(١) هو الامام العظيم شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا فى عصره توفى سنة ٦٦٠

وكان سلطانه فى دمشق الصالح اسماعيل ، فاستنجد بالافرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً ، فأتبعه الصالح بعض خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يامسكين أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدى . أنتم فى واد وأنا واد :

ثم قدم إلى مصر فى سنة ٦٣٩ فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتخفى به وولاه خطابة مصر وقضاءها . وكان أيوب ملكا شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا هيباً ، ولا يتكلم فى أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك مالم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر . فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم : ياأيوب ! ثم أمره بابطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر . فرسم السلطان لوقته بابطال الحانة واعتذر إليه

فحدثنى الباجى قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت ياسيدى كيف كانت الحال ؟

قال يا بنى رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره ، فكان ما باديته به

قلت : أما خفته ؟

قال : يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط [1] . ولو أن حاجة من الدنيا كانت فى نفسى لرأيته الدنيا كلها ؛ بيد أنى نظرت بالآخرة فامتدت عينى فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شىء فى صورة شىء

نحن ياولدى مع هؤلاء كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ، فاذا أمرناهم فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الانسان . وهم قوم يرون لأنفسهم الحق فى إسكات الكلمة الصحيحة أو

(١) هذه كلمات الشيخ بحروفها

طمسها أو تحريفها ؛ فما بدّ أن يقابَلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق فى إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها . فاذا كان ذلك فهينا المعنى بإزاء المعنى . فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها فيكون باطلا مزوّراً فى صورة الحق وههنا تكون الذات مع الذات فيخشع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدى الغنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيفَ

كلا يا ولدى ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها . فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير . وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط للذى فيها إذا هى لم تخزه ؟

إن العالم الحق كالمسمار ؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة . . .

* * *

قال الامام تقى الدين : وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس ؛ وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة ؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها . ففكّر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حَسَن منها هو الحَسَن وإن كان قبيحاً فى ذاته ولا أقبح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حَسَناً ولا أحسن منه

وقال : ما معنى الأمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله . وكان ينبغى أن تكون هذه الامارة أعمالا نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد ، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، فحكم الرق مُستصحَب عليهم لبيت مال المسلمين ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم ؛ ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لا يصح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى

ثم جعلوا يتسببون الى رضاه ويتحملون عليه بالشفاعات — وهو مصر لا يعبأ بجلالة أخطارهم ولا يخشى انتقامه بعداوتهم ، فرفعوا الأمر الى السلطان فأرسل اليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه وهو رجل ليس له الا نفسه وما تكاد تصل يده الى ما يقيمه ، وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى

وانتهى ذلك الى الشيخ الامام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر فاكترى حميرا أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج — الى الشام . فلم يبعد الا قليلا نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى ، وسار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به . واستعلنت قوة الشرع فى مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير ، فقيل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك

فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة ، وأطلق له أن يأمر بما شاء وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ، وليس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر فى صورة الطائر —

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة فى بيعهم وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد تعالم كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم فى هذا الرقيق الغالى

* * *

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة فبعث الى الشيخ بلاطفه ويسترضيه فلم يعبأ الشيخ به . فهاج هائجه وقال :

كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذى يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه ؟ إنه يفقد مالا يملك ويفقد غير الموجود ، فلا جَرَمَ لا يبالى ولا يرجع عن رأيه مادام هذا الرأى لا يمر فى منافعه ولا فى شهواته ولا فى أطماعه كالذين نراهم من علماء الدنيا . أما والله لأضربنه بسيفى هذا فما يموت رأيه وهو حى .

ثم ركب النائب فى عسكره وجاء الى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب

فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فانقلب الى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف ، وإنه وإنه

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له : يا ولدى ! أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت فليس فيه الانسانى بل الالهى ؛ ونظر الى نائب السلطنة وفى يده السيف ؛ فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها

وتناوله بروحه القوية فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ

وأخذ النائب يبكى ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : ياسيدى ما تصنع بنا ؟

قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم

— وفيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا

وكان الشرع هو الذى يقول (أنا) ، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحدا واحدا واشتط فى ثمنهم لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ . وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه . . .

ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! أمراء للبيع . . .

(طنطا) عبد الحميد العشماوى

القاهرة المعزية

ووجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٢ —

تقترب القاهرة المعزية من عيدها الألفى دون أن يثير ذلك فى دوائرنا الرسمية أو الأدبية كبير صدى ؛ ومن الغريب أن بعض الأجانب الوافدين الذين يكتبون عن بلادنا الفصول والملاحظات الطائرة لم يفتهم أن ينوهوا فيما يكتبونه عن القاهرة بأنها مدينة ألفية ، وأنها موطن الجامعة الألفية الوحيدة فى العالم ؛ ذلك أن هذه الحقيقة التاريخية تثير حقاً أعظم إهتمام من كل أولئك الذين يضطرمون إعجاباً بعظمة التراث الحافل ، ويحنون رؤوسهم إجلالا لروعة التاريخ

وإذا كانت القاهرة ليست هى المدينة الألفية الوحيدة بين حواضر العالم القديم ، وإذا كانت أثينة وروما والاسكندرية وقسطنطينية تشاطرها هذا الفخر وتفوقها فى مداه ، بل تشاطرها هذا الفخر حواضر إسلامية أخرى مثل بيت المقدس ، ودمشق ، وبغداد ، فإنها مع ذلك تمتاز على هذه الحواضر جميعا بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنبا إلى جنب ؛ فالآثار الفرعونية الباهرة التى تغيض فيما وراء القرون تشرف عليها مجللة بروعة الخلود ، وآثار العصور الاسلامية المختلفة تنبث فى جنباتها وتسبغ عليها لونا إسلاميا عميقا وتزينها بكل ما ازدانت به هذه العصور المجيدة من فن وروعة وبذخ ؛ ثم أن بشائر العصر الحديث وأمارات الحضر الناضج ، وكل ألوان الحضارة المعاصرة بما فيها من تطور وتجديد وابتكار ، تطبعها بطابعها القوى ، فهى من هذه الناحية من أجمل وأحدث العواصم القديمة ، بل هى تفوق من هذه الناحية عواصم العالم القديم : روما وأثينة وقسطنطينية ، ومع ذلك فان هذا التجدد السريع لم يجردها من جلالها القديم ، ولم يخلع عنها تلك الروعة التى يسبغها تعاقب الأحقاب على الحواضر التالدة